(٩٥) الحسين بن منصور الحلاَّج[1]

ذكر الحسين بن منصور الحلاَّج قدّس الله روحه العزيز:

قتيل الله في سبيل الله، أسدُ غابةِ التحقيق، الشجاعُ المقدام الصدّيق، الغارقُ في البحر الموّاج، الحسين بن منصور الحلاّج، رحمة الله عليه.

كان أمرُهُ عجبًا، وكانت الوقائع الغريبة الخاصَّة به في غاية اللَّوعة والشوق، وكان لشدَّةِ اللهب والفراق سكران لا يقرُّ له قرار.

وكان ثائرَ عصره، والعاشقَ الصادق والطاهر.

وكان عظيم الجدِّ والاجتهاد، ذا رياضات وكرامات عجيبة.

وكان عالي الهمَّةِ رفيعَ القدر.

---

(١) طبقات الصوفية ٣٠٧، تجارب الأمم ١/ ٧٦ حوادث سنة (٣٠٩)، الفهرست ٣٦٩ (الفن الخامس من المقالة الخامسة)، تاريخ بغداد ٨/ ١١٢، الأنساب ٤/ ٢٧٨، المنتظم ٦/ ١٦٠، مناقب الأبرار ٦٩٦، الكامل في التاريخ ٨/ ١٢٦، المختار من مناقب الأخيار ٢/ ٢١٦، وفيات الأعيان ٢/ ١٤٠، سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣١٣، العبر ٢/ ١٣٨، ميزان الاعتدال ١/ ٥٤٨، دول الإسلام ١/ ١٨٧، الوافي بالوفيات ١٣/ ٧٠، مرآة الجنان ٢/ ٢٥٣، البداية والنهاية ١١/ ١٣٢، طبقات الأولياء ١٨٧، لسان الميزان ٢/ ٣١٤، النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٢، ٢٠٢، ٢٠٣، نفحات الأنس ٢٢٥، طبقات الشعراني ١/ ١٠٧، الكواكب الدرية ٢/ ٦٨، شذرات الذهب ٢/ ٢٥٣، وانظر تراث الحلاج (أخباره ديوانه طواسينه) إعداد وتحقيق د. عبد الإله نبهان، ود. عبد اللطيف الراوي. دار الذاكرة. حمص ١٩٩٦.

واختلف في سبب نسبته، فقيل: لأنه حلج قطن الدكان، وقيل: كان يتكلّم على أسرار الناس، وما في قلوبهم ويخبر عنها، فسُمّي بذلك حلاجَ الأسرار، وقيل: بل إن أباه كان حلاجًا فنُسب إليه. انظر الأنساب ٤/ ٢٧٩، والمختار ٢/ ٢١٦.

وترجمته في الأصل الفارسي برقم (٧٢) بين ترجمتي أبي محمد الجريري وإبراهيم الخواص. وانظر صفحة (٨٦٥).

وله تصانيفُ كثيرةٌ بألفاظ مُزينةٍ بحقائقَ وأسرارٍ ومعاني الحبِّ الكامل[١].

وكان له من الفصاحة والبلاغة ما لم يكن لدى سواه، ويتمتَّعُ بدقَّةِ النظر والفِراسة ممّا لا يوجد عند أحدٍ آنذاك.

وكان أغلب المشايخ الكبار لا يعبؤون بنهجه، وقالوا: إنّه لا قدمَ له في التصوف، سوى أبي عبد الله بن خفيف، والشبلي، وأبي القاسم القُشيري، وجمعٍ المتأخَرين إلاّ ما شاء الله الذين قبلوه.

وكان أبو سعيد بن أبي الخير قدّسَ الله روحَه العزيز، والشيخ أبو القاسم الجرجاني، والشيخ أبو علي الفارمذي، والإمام يوسف الهمذاني رحمة الله عليهم أجمعين يسيرون على خطاه، بينما يتوقَّفُ آخرون في نهجه.

وقد قال الأستاذ أبو القاسم القُشيري بحقِّه: إنْ كان مقبولاً فلن يُرفض بردِّ الخلق، وإن كان مرفوضًا فلن يُقبلَ بقبول الخلق.

ونسبه آخرون إلى السحر، ونسبه بعضُ أصحاب الظاهر إلى الكفر، بينما قال البعض: إنه من أصحاب الحلول، وقال البعضُ الآخر: إنَّه كان يعتقد الاتحاد. ولكن كلُّ من اعتقد ـ ولو قليلاً ـ بالتوحيد فلن يكونَ بمقدوره إطلاقًا أن يتخيَّلَ الحلولَ والاتحاد. وكلُّ من زعم ذلك فإنَّ سريرته مجرَّدةٌ من التوحيد. وشرحُ ذلك يطول ممّا لا مُتَّسعَ لذكره في هذا الكتاب.

وكان جمعٌ من الزنادقة في بغداد دعوا أنفسَهم حلاَّجيِّين، سواءٌ بقولهم بوهم الحلول أم بغلط الاتحاد، وانتسبوا إليه، ولم يفهموا كلامه، وافتخروا بذلك القتل والحرق تقليدًا صرفًا، حين حدث في بلخ لاثنين ما حدث للحسين الحلاج؛ لكنَّ التقليدَ في هذه الواقعة ليس شرطًا. وإنّي لأعجب ممّن يرضى بأن يخرجَ من شجرة (أنا الله) لماذا لا يرضى بشجرةٍ نابتةٍ في «لا» التي تصدر عن حسين (أنا الحقُّ). والحسين في وسط (لا). وكما قال الحقُّ تعالى عن

---

(١) أورد ابن النديم في الفهرست ٢٤٢ـ ٢٤٣ جملة من أسماء كتبه، كما ذكر صاحب هدية العارفين ١/ ٣٠٤ جملة من أسماء تآليفه أيضًا.

لسان عمر: «إن الحقَّ لينطق على لسان عمر»[١]، وهنا لا وجود للحلول ولا للاتحاد.

يقول البعضُ: إنَّ الحُسينَ بن منصور هو حلاَّجٌ آخر، والحسين بن منصور ملحدٌ آخر، كان أستاذًا لمحمد بن زكريا الرازي، ورفيقًا لأبي سعيد القرمطي. وكان الحسينْ ذاك ساحرًا، أمّا الحسين بن منصور فقد كان من قرية البيضاء بفارس[٢]، وتربّى في واسط.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: الحسين بن منصور عالمٌ رباني.

وقال الشبلي: أنا والحلاج شيءٌ واحدٌ؛ لكنَّني اتُّهمت بالجنون فنجوت، والحسين قتله عقلُهُ.

فلو طعنت بهذين العظيمين لما قلت ذلك بحقِّه، ولدينا شاهدان كاملان مداومان على الرياضة والعبادة.

وإنّما صدر هذا الكلام عنه في بيان المعرفة والتوحيد، وكان في زيِّ أهلِ الصلاح، ومُتمسِّكًا بالشرع والسنة، لكنَّ بعضَ المشايخ هجروه ليس بسبب مذهبه ودينه؛ بل لأنَّ عدم رضا المشايخ عن سُكره أدّى إلى ذلك.

وعندما كان في أول أمره مُستترًا أصبح في خدمة الشيخ سهل بن عبد الله، وظلَّ مُلازمًا له لسنتين، ثم توجَّهَ إلى بغداد، وكانت أول رحلةٍ له، وهو في الثامنة عشرة من عمره، ثم ذهب إلى البصرة، وانضمَّ إلى عمرو بن عثمان، وظلَّ بصحبته ثمانية عشر شهرًا، ثم إنَّ يعقوب الأقطع زوّجه ابنته، وبعد ذلك غضب عمرو بن عثمان منه، فعاد إلى بغداد لدى الجنيد الذي دعاه إلى السكوت والخلوة، فصبر في ملازمته مدّةً، ثم غادر إلى الحجاز، ومكث فيها

---

(١) أخرج أحمد في المسند ٢/ ٩٥، وفي فضائل الصحابة (٣١٣)، والترمذي (٣٦٨٢)، وأبو داود (٢٩٦١ـ ٢٩٦٢) عن ابن عمر أن النبيَّ ﷺ قال: «إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه».

(٢) هي مدينة بيضاء فارس أكبر مدينة في كورة اصطخر بفارس، وإنّما سُمّيت البيضاء لأن لها قلعةً تبين من بُعد، ويُرى بياضُها. انظر معجم البلدان.

سنةً، ثم عاد إلى بغداد، وذهب إلى الجُنيد مع جماعةٍ من المتصوفة، وطُرح عليه مسائل، فلم يُجبْ عليها، وقال: لقد استعجلتَ بجعل رأس الخشبة أحمرَ. فقال: إنّني في اليوم الذي سأجعل فيه أعلى الخشبة أحمر ستلبس أنت فيه لباس أهل الظاهر.

وعندما أصدر الأئمةُ يومًا فتوى بوجوب قتله، كان الجُنيد في لباس التصوف، ولم يكن ممّن يكتب الفتاوى، وكان الخليفة قد قال بضرورة وجود توقيع الجنيد. فلبس الجُنيد عِمامته ودرَّاعته، وذهب إلى المدرسة، وكتب جواب الفتوى: نحن نحكم بالظاهر. أي أنّه بحسب الظاهر يستحقُّ القتل، والفتوى على الظاهر، أمَّا الباطن فيعلمه الله.

ولمّا لم يجدِ الحسين من الجُنيد جوابًا للمسائل غادر واستتر من غير إذن، ومكث هناك سنةً، حظي فيها بقبول عددٍ كبير، ولم يُقم وزنًا لكلام أيٍّ من أهل عصره إلى الحدِّ الذي حسدوه، وكتب عمرو بن عثمان في أمره رسائل إلى خوزستان، وقبَّحَ أحواله في أعين أهل تلك الديار، وجعلهم يتحاملون عليه، فخلع لباس المتصوفة، ولبس القَبَاء[1]، وانهمك بمصاحبة أبناء الدنيا؛ لكنَّ ذلك لم يغيِّرْ منه شيئًا.

ثم إنّه اختفى لخمس سنواتٍ، قضى شطرًا منها في خراسان وما وراء النهر، والشطر الآخر في سجستان، ثم عاد إلى الأهواز، وتحدّثَ إلى أهلها، وحظي بقبول الخاصِّ والعام، وكان يتحدَّثُ عن أسرار الخلق، حتى سُمّي بحلاَّج الأسرار.

ثم لبس المرقعة، وحزم أمره، وكان معه في تلك الرحلة كثيرٌ ممّن يلبسون الخرقة. ولمّا وصل إلى مكة نسبه يعقوب النهرجوري إلى السحر، ومن هناك عاد إلى البصرة، ومنها إلى الأهواز، ثم ارتأى أن يذهب إلى بلاد الشرك ليدعو الخلقَ إلى الله، فذهب إلى الهند، ثم إلى ما وراء النهر، وبعدها انتقل إلى

---

(١) القَباء: من الثياب، سمي به لاجتماع أطرافه، يُمدُّ ويقصر ويذكّر، قيل إنه عربي، وقيل إنه فارسي، وهو في الغالب من ملابس العجم. متن اللغة (قبي).

الصين، ودعا الخلقَ إلى الله، وألّف لهم تصانيف، وحين عاد كتبوا إليه الرسائل من أقصى العالم.

وقد دعاه أهل الهند بأبي المُغيث، وأهلُ الصين بأبي المعين، وأهل خراسان بأبي المهر، وأهلُ فارس بأبي عبد الله، وأهل خوزستان بحلاّج الأسرار، وأهل بغداد بالمُصطلم، وفي البصرة بالمخبّر.

ثم كثرت الأقاويل بشأنه، وبعدها توجّه إلى مكّة، وجاور في الحرم لسنتين، وحين عاد تغيَّرت أحوالُه إلى حالٍ آخر، فكان يدعو الناس إلى معانٍ لا يُدركُها أحدٌ، حتى قيل: إنّه طُرد من خمسين مدينة، ومرّ عليه دهرٌ لا أعجب منه.

ودُعي بالحلاّج لأنه مرّ يومًا بكدس قطن، فأشار بيده، فانفصلتِ البذورُ على الفور عن ألياف القطن، فتحيَّر الناس.

وروي أنّه كان يُصلّي في اليوم والليلة أربع مئة ركعة، ويرى ذلك لزامًا عليه. وقد قيل له: لماذا تعذِّبُ نفسَك إلى هذا الحدِّ؟ فأجاب: لا الراحةُ تؤثّر في حال الأصحاب ولا العذاب، فالأصدقاءُ صفتُهم الفناء، لا العذابُ بمؤثرٍ فيهم ولا الراحة.

وروي أنه قال عندما كان في الخمسين: لم أتَّخذْ مذهبًا حتى الآن؛ لكنَّني اخترتُ من كلِّ مذهبٍ ما هو أشقّ على النفس، واليوم وقد بلغت الخمسين فقد صلّيتُ، ولكلِّ صلاةٍ اغتسلتُ.

وقيل: إنّه في بدء رياضاته كان له دَلَقٌ[١] لم يخلعْهُ عشرين عامًا، فخلعوه عنه في أحد الأيام عنوةً. وكان فيه كثيرٌ من الهوام، وُزنَتْ إحداها فكانت نصفَ دانق[٢].

---

(١) الدَّلَق: ثوب متسع الأكمال طويلها، مفتوح فوق كتفيه بغير تفريج، سابل على القدمين. ويحسن أن يطلق على ما يُسمّونه الروب، وهو لباس المحامين والقضاة. متن اللغة.

(٢) الدَّانق: بفتح النون وكسرها من الأوزان، هو سدس الدرهم. اللسان.

وروي أنَّ أحدًا اقترب، فرأى عقربًا تدور حوله، فأراد قتلها، فقال الحلاج: اتركها، إنها منذ اثنتي عشرة سنة نديمتي وتدور حولي.

وروي أن رشيد خرد السمرقندي كان متوجِّهًا إلى مكّة، وفي الطريق كان يُقيم المجالس، فروى أنَّ الحلاجَ توجَّه إلى البادية مع أربع مئة متصوف، وبعد مضي عدّة أيام لم يجدوا شيئًا، فقالوا للحسين: آتِنا شواءً. فقال: اجلسوا. ثم مدّ يده خلفه، وجاء بالشواء، فكان يُعطي لكلِّ واحد منهم شواء مع رغيفين من الخبز إلى أن أعطى أربع مئة حصة شواءً مع ثمان مئة رغيف، وبعدها قالوا: آتنا رُطبًا. فوقف وقال: هزّوني. فهزّوه، وتساقط منه الرُطبْ، فأكلوا حتى شبعوا، وفي الطريق كانوا كلَّما لمسوا نبتةَ شوكٍ أعطت رطبًا.

وقيل: إنَّ الجمعَ طلبوا إليه في البادية أن يأتيهم بتينٍ، فمدَّ يده في الهواء، ووضع بين أيديهم طبقًا من التين الطازج.

وطلبوا مرّةً حلوى، فوضع بين أيديهم طبقًا من الحلوى بسكّرٍ ساخن، فقالوا له: إنَّ هذه حلوى باب الطاق[1] ببغداد. فقال: إن بغداد والبادية عندنا واحد.

وقيل: إنّه كان معه في البادية أربعةُ آلاف شخصٍ حتى الكعبة.

وفي سنةٍ أُخرى وقف قدّام الكعبة عاريًا في الشمس المحرقة حتى سالَ الدُهنُ من أعضائه على ذلك الحجر، وتشقَّق جلدُهُ، ولم يتحرَّك.

وكان يُوضع إلى جواره كلَّ يومٍ رغيفُ خبزٍ وجرّةُ ماء، فكان يُفطر بحافات الرغيف، ويضع الباقي على جرَّةِ الماء.

وقيل: إنَّ عقربًا كانت قد عَشَّشَتْ في إزاره.

قال في عرفات: يا دليلَ المتحيِّرين. وحين رأى أن الجميع لبُّوا، وضعَ هو أيضًا رأسَهُ على تلِّ رملٍ، وظلَّ يُراقب إلى أن عاد الجميع، فتنهَّدَ وقال: أيُّها

(١) باب الطاق محلة كبيرة ببغداد بالجانب الغربي. معجم البلدان.

الملك، أيُّها العزيز، أعلم أنك منزَّهٌ، وأُنزّهُك من كلِّ تسبيح المُسبِّحين، ومن كلِّ تهليل المهلِّلين، ومن كلِّ ظنون أصحابِ الظنون. إلهي، أنت تعلمُ أنَّني عاجزٌ عن مواضع الشكر، فاشكرْ ذاتك بدلاً منّي، فذلك هو الشكرُ لا سواه.

ورُوي أنَّه قال يومًا لإبراهيم الخوَّاص في البادية: في أيِّ شأنٍ أنت؟ فأجاب: في مقام التوكُّل، أَفعلُ التوكّل. فقال: أمضيتَ كلَّ العمر في عمارةِ بطنك، فمتى تفنى في التوحيد؟ أي أنَّ أَصلَ التوكّلِ هو في عدم الأكل، وقد كنتَ طوال حياتك في توكّلِ ملءِ البطن، فمتى سيكونُ الفناء في التوحيد؟

وسُئل: هل لدى العارف وقت؟ فقال: لا، لأنَّ الوقت صفةُ صاحب الوقت، وكلُّ من استقرَّ على صفته لم يكن عارفًا. والمعنى هو: لي مع الله وقتٌ.

وسُئل: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: خطوتان وتصل، ترجعُ خطوةً عن الدنيا، وتُقدّمُ خطوةً إلى الآخرة، وعندها تصلُ إلى المولى.

وسُئل عن الفقر، فقال: الفقير من استغنى عمّا سوى الله، وتوجَّهَ إلى الله.

وقال: المعرفةُ هي رؤية الأشياء، وهلاكُ كلِّ شيءٍ في المعنى.

وقال: عندما يبلغ العبدُ مقامَ المعرفة يرسلُ الغيبُ إليه وحيًا، ويصبحُ سرُّهُ مُبهمًا بحيث لا يخطر له خاطرٌ سوى خاطر الحقِّ.

وقال: الخُلُقُ العظيم هو أن لا يؤثِّرَ جفاءُ الخلق فيك بعد أن تكونَ قد عرفتَ الحقَّ.

وقال: التوكّلُ أن يعرف في المدينة شخصًا أولى منه بالطعام، فلا يأكل.

وقال: الإخلاص تصفيةُ العملِ من شوائب الكدر.

وقال: اللسان الناطق مهلكةُ القلوب الصامتة.

وقال: الكلامُ مرهونٌ بالعلل.

وقال: الأفعال في الشرك، والحقُّ خالٍ من ذلك ومستغنٍ عنه، قال الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

وقال: بصائرُ المبصرين، ومعارفُ العارفين، ونور العلماء الربَّانيين، وطريق السابقين الناجين، والأزلُ والأبدُ وما بينهما من الحُدوث، ولكن كيف يَعرفُ ذلك إلاّ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال: في عالم الرضا أفاعٍ تُدعى اليقين، أَعمالُ ثمانية عشر ألف عالم في أفواهها كحبَّةِ رملٍ في صحراء.

وقال: نحن نطلبُ بلاءها في كلِّ سنةٍ كسلطانٍ يُواصل تمسُّكه بملكه.

وقال: خاطرُ الحقِّ هو أن لا يتمكَّنَ شيءٌ من معارضته.

وقال: المريد في ظلِّ توبته، والمُرادُ في ظلِّ العصمة.

وقال: المُريد هو من يسبقُ اجتهادُه ما يُكشف له، والمراد مكشوفاته تسبق الاجتهاد.

وقال: وقتُ الرجل هو صدفُ بحرِ صدره، وغدًا ستُضرب هذه الأصداف بالأرض في عَرصات القيامة.

وقال: الدنيا بالتخلّي عن زهد النفس، والآخرةُ بالتخلّي عن زهد القلب، وتركُ الحديث عن الذات هو زهدُ الروح.

ورُوي أنه سُئل عن الصبر، فقال: هو أن تُقطَّعَ الأيدي والأرجل، ويُعلَّقَ على خشبة الصلب. والعجيب أنَّ كلَّ ذلك فُعل به.

ورُوي أنّه قال للشِّبلي يومًا: يا أبا بكر، دعني فقد نويت أمرًا عظيمًا أدّى إلى أن يكونَ القتلُ بانتظاري.

وعندما تحيَّرَ الخلقُ في أمره، ظهر عددٌ لا حصر له من المعارضين، وعددٌ لا يُحصى من المؤيِّدين، ورأوا منه الأعمال العجيبة، وتطاولوا عليه، ووشوا به لدى الخليفة، واتَّفقوا جميعًا على قتله، لأنَّه كان يقول: أنا الحقُّ. فقالوا: قل هو الحقُّ. قال: هو من تقولون إنه ضاع، ولكن الحسينُ هو الذي ضاع، والبحرُ المحيط لا يضيعُ ولا يَنقصُ. فسُئل الجنيد: هل لهذا الكلام الذي يقوله الحسين بنُ منصور تأويل؟ قال: دعوهم يقتلونه، فليس يوم التأويل.

ثم خرجت عليه جماعةٌ من أهل العلم، وفنَّدَتْ آراءه لدى المقتدر[١]، وغيّروا رأي علي بن عيسى[٢] الذي كان وزيرًا فيه، فأمر الخليفة بسجنه، فسُجن سنةً كاملة، لكن الناس يذهبون إليه ويسألونه مسائل، فمُنع الناس بعدها من المجيء إليه، فلم يزرْهُ أحدٌ لخمسة أشهرٍ إلاّ مرةً زاره فيها ابن عطاء، ومرةً أبو عبد الله بن خفيف، ومرةً أرسلَ ابنُ عطاء شخصًا يقول له: أيها الشيخ، اعتذر عمّا قلته لتنجو. فقال الحلاج: قل لمن قال ذلك أن يعتذر. وحين سمعَ ابنُ عطاء ذلك بكى، وقال: نحن عدّةُ نُسخٍ من الحسين بن منصور.

وقِيل: إنَّه في الليلة الأولى التي حُبس فيها جاؤوا إلى السجن فلم يجدوه، وفتَّشوا جميع أرجاء السجن، فلم يجدوا أحدًا. وفي الليلة الثانية لم يجدوه لا هو ولا السجن. وفي الليلة الثالثة رأوه في السجن، فقالوا له: أين كنت في الليلة الأولى؟ وأين كان السجن وأنت في الليلة الثانية، بينما ظهر كلاكما اليوم؟ فقال: في الليلة الأولى كنت في الحضرة، فلم أكن فيه، وفي الليلة الثانية كانت الحضرة الإلهية، لذا غبتُ أنا والسجن، وفي الليلة الثالثة تمّ إرسالي لحفظ الشريعة، فتعالوا ونفِّذوا مهمتكم.

وقيل: إنَّه كان يُصلّي وهو في السجن ألفَ ركعةٍ في اليوم والليلة. فقيل له: أنت تقول أنا الحقُّ، فلمن تُصلّي؟ فقال: أنا أعرف قدر نفسي.

---

(١) هو جعفر بن أحمد بن طلحة أبو الفضل المقتدر بالله ابن المعتضد ابن الموفق، الخليفة العباسي (٢٨٢ـ ٣٢٠هـ) بويع بالخلافة سنة (٢٩٥) فاستصغره الناس، فخلعوه سنة (٢٩٦هـ) ونصبوا عبد الله بن المعتز، ثم قتلوا ابن المعتز، وأعيد المقتدر بعد يومين، فطالت أيامه، وكثرت فيها الفتن، وعصاه كبار دولته، حتى خادمه مؤنس أخرجه من دار الخلافة مع أمّه وأولاده وجواريه سنة ٣١٧هـ، ثم أُعيد، وعاد للخلافة ثانية، وقد قتله جنده سنة ٣٢٠هـ، وكان ضعيفًا مبذرًا، استولى على الملك في عهد خدمه ونساؤه وخاصته.

وفي أيامه قوي أمر القرامطة حتى قلع أبو طاهر الحجر الأسود، وقتل الخلق الكثير.

وجاء في الأصل: وفنّدت آراؤه لدى المعتصم.

(٢) علي بن عيسى بن داود الجراح (٢٤٤ـ ٣٣٤هـ) وزر للخليفة المقتدر العباسي، والقاهر، أحدُ العلماء الرؤساء من أهل بغداد، أصلح أحوال الوزارة وأحسن الإدارة، وحمدت سيرته.

وقيل: إنّه كان معه في السجن ثلاث مئة سجين، وحين جنَّ عليه الليلُ قال: أيُّها السُّجناء، سأخلّصكم. قالوا: لماذا لا تُخلّصُ نفسك؟ فقال: أنا في قيد الله، وأقدِّر السلامة، فلو أردتُ لفتحتُ كلَّ القيود بإشارة واحدة. ثم أشار بأصبعه، فتحطَّمت جميعُ القيود، فقالوا: أين سنذهب، وباب السجن مُغلق؟ فأشار بيده، فحدثت فجواتٌ في الجدار، فقال: ليذهبْ كلٌّ منكم لحال سبيله. فقيل له: ألا تأتي أنت؟ قال: إنَّ لي معه سرًّا لا يمكن البوح به إلاّ على مِنصَّة القتل. وفي اليوم الثاني سئل: أين السُّجناء؟ فقال: أطلقتُ سراحهم. فقيل: لِمَ لَمْ تذهب أنت؟ فقال: إنَّ الحقَّ عاتبٌ عليَّ فلم أذهب. فبلغ هذا الخبرُ الخليفة، فقال: سيخلق الحلاج فتنةً، فاقتلوه أو اجلدوه ليرجع عن كلامه هذا. فضرب ثلاثة مئة جلدة، ومع كلِّ جلدةٍ كان يأتي نداءٌ بلسانٍ عربيٍّ فصيح: لا تخف يا بن منصور.

يقول الشيخ عبد الجليل الصفّار: كان إيماني بذلك الجلاّد أكثرَ من إيماني بالحسين بن منصور، لأن ذلك الرجل كان له من القوّة ما يجعله يسمع ذلك النداء الصريح، ولا ترتجف يدُه، ويُواصل الجلد.

وفي مرةٍ أُخرى أُخذ الحسين ليُصلبَ، فاجتمع مئةُ ألف إنسان حوله، وكان هو يُدير طرفَه فيهم ويقول: حقٌّ، حقٌّ، أنا الحقُّ.

ورُوي أنَّ متصوّفًا سأله وهو في تلك الحالة: ما العشق؟ فقال: اليوم تراه، وغدًا، وبعد غد. فصُلب في ذلك اليوم، وأُحرقَ في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث ذُرِّي رماده. أي أن العشق هو ذلك.

فطلب إليه خادمه، وهو في تلك الحال وصيةً، فقال: اشغل النفسَ بشيءٍ يمكن فعله، وإلاّ شغلتك هي بشيءٍ لا يُمكن فعله[1]، وفي هذه الحال فإنَّ الخلوةَ بالنفس هي عملُ الأولياء.

وقال ابنه: أوصني. فقال: إذا انهمك الناسُ في الأعمال، فاشغلْ نفسَك

(١) في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٥٠: هي نفسك، إن لم تشغلها شغلتك.

بشيءٍ ذرةٌ منه أفضلُ من أعمال الجنِّ والإنس بأسرها، وليس ذلك سوى علم الحقيقة.

وحين كان يمشي في الطريق كان يتبخترُ كالعيّارين مع ثلاثة عشر قيدًا ثقيلاً، فقيل: لِمَ هذا التبختر؟ فقال: لأنّني ذاهبٌ إلى المذبح. وكان يصرخ قائلاً[1]:

نَديمي غيرُ مَنسوبٍ إلى شيءٍ من الحيفِ
سقاني مثلما يَشرَبُ فعلَ الضَّيفِ بالضيفِ
فلمّا دارتِ الكأسُ دعا بالنِّطعِ والسَّيفِ
كذا من يشربُ الرَّاحَ مع التِّنيِّنِ بالصيفِ[2]

فلمّا أُخذ إلى المنصَّة في باب الطاق توجَّه نحو القبلة، ووضع قدمه على السلم، فسُئل: ما الحال؟ قال: معراجُ الرجال على رؤوس المشانق. وكان مُؤتزرًا بمئزرٍ، وعلى كتفيه طيلسان، فأخرج يديه، وهو متوجّهٌ نحو القبلة، فناجى ربَّه قائلاً: إنَّ ما تعلمه أنت لا يعلمه أحد.

ثم اعتلى المنصَّة، فسأله مُريدوه: ما قولُك فينا نحن المريدين وفي هؤلاء الخصوم ممّن سيرجمونك بالحجارة؟ فقال: لهؤلاء ثوابان، ولكم واحد، ذلك أنكم تُحَسنون الظنَّ بي لا أكثر، وهؤلاء يَنطلقون بقوة التوحيد إلى صلابة الشريعة، وكان التوحيدُ في الشرع أصلاً، وحسنُ الظنِّ فرعًا.

يُروى أنه عندما كان شابًا نظر إلى امرأةٍ، فقالت للخادم: كلُّ من ينظر هكذا يُغمض عينيه هكذا.

وقد وقف الشِّبلي قبالته ونادى: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ [الحجر: ٧٠].

---

(١) انظر الديوان ١٤٩، والأبيات من الأشعار التي نُسبت إليه، وهي للحسين بن الضحاك الخليع. انظر الأغاني ٧/ ١٢٤ (ط دار صادر، تحقيق الدكتور إحسان عباس).

(٢) التنين ضرب من الحيات السوداء العظيمة، وهو لقب إبراهيم بن مهدي الأمير العباسي، لقّبَ به لسواد لونه وسمنه.

وقال: ما التصوّف يا حلاّج؟ فأجاب: أقلّه ما تراه. فقال: وما أكثره؟ قال: لا سبيل لك إلى ذلك.

وقد رماه كلُّ واحدٍ بحجرٍ إلاّ الشِّبليُّ فإنّه رماه بطينةٍ إظهارًا لموافقته لهم. فتأوّه الحسينُ بن منصور، فسئل: لم تتأوّهْ من كلِّ هذه الأحجار، فما معنى أن تتأوّهَ من طينةٍ؟ فقال: لأن هؤلاء لا يعلمون؛ فهم معذورون، وإنّما يصعبُ عليَّ تحمّل ذلك منه لأنه يعلم أنه لا ينبغي له أن يرجمني.

ثم إنَّهم قطعوا يده، فضحك، فسئل: لماذا تضحك؟ قال: إنَّ قطعَ يدِ إنسانٍ مُقيَّدٍ أمرٌ سهل؛ والرجل هو الذي يقطعُ يدَ الصفات التي ترفع تاج الهمّة عن مفرق العرش.

ثم قطعوا رجليه، فتبسّم، وقال: لقد كنتُ أُسافرُ بهاتين القدمين سفرًا على التراب، ولي قدمٌ أُخرى تُسافر اليوم في كلا العالمَيْنِ، فإن استطعتم فاقطعوا تلك القدم.

ثم مسح بيديه المقطوعتين الداميتين وجهَهُ حتى لطخ ساعديه ووجهه بالدماء. فسئل: لماذا فعلت هذا؟ أجاب: لقد نزف منّي دمٌ كثير، وأعلم أن وجهي أصفر، وقد تتصوّرون أنَّ صفرةَ وجهي هي من الخوف، فلطّخته بالدم لأكونَ في عيونكم أحمرَ الوجه، فحُمرة الرجال هي دماؤهم. فسُئل: إذا كنتَ قد جعلتَ وجهك أحمر بالدم، فلماذا لطّختَ ساعدك؟ فقال: أنا أتوضأ. فسُئل: أيَّ وضوء؟ أجاب: ركعتان في العشق لا يصحُّ وضوؤهما إلاّ بالدم.

ثم اقتلعوا عينيه، فارتفع صراخ الناس، فكان البعضُ يبكي، والبعض يقذف بالحجارة.

ثم أرادوا قطع لسانه، فقال: اصبروا حتى أتحدَّثَ بحديثٍ. فتوجَّه نحو السماء وقال: إلهي، لا تحرمهم من هذا العذاب الذي يذيقونني إيّاه لأجلك، ولا تحرم دولتَهم من ذلك، الحمد لله أنهم قطعوا يديّ ورجليّ في سبيلك، ولو فصلوا رأسي عن جسدي فهم بمشاهدة جلالك سيفعلون ذلك مرّةً أخرى فوق المنصَّة.

ثم قطعوا أذنه وأنفه ورجموه، فجاءت عجوز تحمل جرَّةً، وحين رأت الحسين قالت: ارجموه بشدّةٍ؛ فما لهذا الحلاّج المصلوب وكلام الله؟

وكان آخرُ كلام الحسين هو: حسبُ الواحد إفرادُ الواحد، وتلا هذه الآية: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨].

ثم قطعوا لسانه، وكان الوقتُ عند صلاة العشاء حين قطعوا رأسه. وقد تبسَّمَ خلال قطعه وأسلم الروح، فضجَّ الناس.

وأخذ الحسين كلام القضاء إلى نهاية ميدان الرضا، وكان ينطلقُ من كلِّ عضوٍ من أعضاء بدنه نداء: أنا الحقُّ.

وفي اليوم التالي قيل إنَّ الفتنة ستكونُ أكبرَ ممّا كانت عليه أيام حياته، ثم إنّهم أحرقوا أعضاءه، فكان ينطلقُ من الرمادِ نداءُ: أنا الحقُّ.

كما أنّ كلَّ قطرةِ دمٍ كانت تُراق حين قتله كانت تكتب (الله)، فتحيّروا في أمره، فألقوه في دجلة، وفي الماء أيضًا كان يقول: أنا الحق.

وكان الحسين قد أوصى: عندما يُلقى رمادُ بدني في دجلة سيُخشى على بغداد من الغرق، فخذوا خرقتي إلى الماء، وإلاّ فسيحلُّ الدمارُ ببغداد. فلمّا رأى الخادم ذلك أخذَ خرقةَ الشيخ إلى شاطىء دجلة إلى ان استقرَّ الماءُ، وانطفأ الرماد، فجمعوه ودفنوه، ولم يكن لأحدٍ من أهل الطريقة هذه الفتوح.

قال أحد المشايخ: يا أهل الطريق اعتبروا، إن كانوا فعلوا هذا بالحسين بن منصور الحلاّج فماذا سيفعلون بمن يدّعي ذلك؟

قال عباس الطوسي: سيُؤتى بالحلاج في عرصات القيامة، وهو مُقَيَّدٌ بالسلاسل، ذلك أنه إذا كان حرًّا فسيجعل الفوضى تحلُّ بالقيامة بأسرها.

وقال أحد المشايخ: قضيت ليلةً حتى الصباح تحت تلك المنصَّة، وكنتُ أُصلّي، وحين طلع الصباح نادى هاتف: أطلعناه على سرٍّ من أسرارنا فأفشى سرَّنا، فهذا جزاءُ من يُفشي سرَّ الملوك.

ورُوي أن الشِّبليَّ قال: ذهبتُ إلى قبره تلك الليلة، وصلّيت حتى الصباح، وناجيتُ الله عند السحر، وقلت: إلهي، كان هذا عبدَكَ، ومؤمنًا وعارفًا وموحِّدًا، فلماذا أنزلتَ به هذا البلاء؟ فغلبني النوم، فرأيتُ أنَّ القيامة قامت، وجاء نداءٌ من الحقِّ: فعلتُ هذا لأنه أفشى سرَّنا للغير.

وروي عن الشِّبلي قوله: رأيتُ الحسين في المنام، فقلت: ماذا فعل الله تعالى بأولئك القوم؟ فقال: رحم الفريقين، فمن أشفق عليّ فقد عرفني، ومن عاداني لم يعرفني، فعاداني لأجل الحقِّ، فرحم الاثنين؛ لأن كليهما كان معذورًا.

ورآه آخر واقفًا في القيامة بيده كأسٌ، وليس على جسده رأس، فقال ما هذا؟ فأجاب: إنّه يُعطي الكؤوس لمقطوعي الرؤوس.

ورُوي أنه عندما عُلِّق على المنصَّة جاءه إبليس وقال: لقد قلتَ مرةً (أنا)[١]، ومرّةً قلتُ آنا ذلك، فنزلتْ عليك من تلك الرحمةُ، وعليَّ من هذه اللعنة. فقال الحلاج: أنت أخذت (أناك) لنفسك، وأنا أبعدتها عن نفسي، فنزلت عليَّ الرحمة، وأنت ليس كما رأيتَ وسمعت لتعرف أن عمل (أنا) ليس حسنًا، وإنّ إبعاد (الأنا) عن النفس في غاية الحسن[٢].

* * *

(١) جاء قوله: ﴿أنا خير منه﴾ في الآية (١٢) من سورة الأعراف، والآية (٧٦) من سورة ص.

(٢) اعلم أن أهل القبلة كلهم لم يجمعوا على مسلم بأنه سعيدٌ ناجٍ، ولم يجمعوا على مسلم بأنه شقيٌّ هالك، فهذا الصدّيق فرد الأمة قد علمتَ تفرّقهم فيه، وكذلك عمر، وكذلك عثمان، وكذلك علي. فما بالك بالحلاّج، ولا أجد أفضل من كلمة حقٍّ قالها مؤرخ الإسلام الإمام الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٥١: ويُمكن أن يكون تزندق في وقتٍ، ومرق وادّعى الألهية، وعمل السحر والمخاريق الباطلة مدّة، ثمّ لمّا نزل به البلاء، ورأى الموتَ الأحمرَ أسلم ورجع إلى الحق، والله أعلم بسرّه. فانظر إلى قوله: (ويُمكن)، ثم انظر إلى قوله: (أسلم ورجع إلى الحقّ).